مظاهر المعرفة التوحيدية
في نهج البلاغة

The Manifestation of Monotheism Know ledge in

Nahjul- Balaga.

أ.د. عباس علي الفحام

جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

Prof. Dr. Abbas Ali Al-Faham

University of Kufa \ College of Education for Girls

ملخص البحث

انحدر علي بن أبي طالب (عليه السلام) من الأرحام المطهرة والأصلاب الشامخة، فهو من أسرة أصلًا تعتقد بالدين الحنيف من نسل إسماعيل (عليه السلام)، ولكن ما ميزه هو التربية الخاصة التي منَّ الله تعالى بها عليه بتبنّي النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) له، فهو بالأصل نشأ على فطرة التوحيد، ومن هنا لم تكن المعاني القرآنية العميقة جديدة عليه، فقد فتح عينيه وهو يستلذها ويعيش أبعادها متأمّلًا وعابدًا مع النبي (صلى الله عليه وآله)، سواء في خلواته في غار حراء، أو في سلوكياته التي كان يتبع فيها ابن عمه اتباع الفصيل أثر أمه. ومن التتبع الدقيق لشخصيته من الطفولة حتى اليفاعة نجد ذوبانها في الحضرة النبوية في النواحي جميعها من التشابه في العمق التفكيري والروحاني إلى شبه التطابق في اللغة والحركات، ولذلك تميز بظواهر اجتماعية وأدبية ألصق بالشخصية النبوية ولم ينكر أحد نسبتها إليه. كاختصاصه بالملازمة والامتداد النسبي من جهة فاطمة (عليها السلام) وتردد نسبة الكلام أحيانا بينه وبين النبي (صلى الله عليه وآله) إلى فضائل جمة لا يمكن حصرها في هذه الأسطر. ولذلك كله ومن باب الأسباب الطبيعية نؤكد أنَّ فكرة التوحيد ومعانيها العظيمة ذائبة في نفس علي (عليه السلام)، عزز قدرة التعبير عنها قوة حفظه وعمق تمثله للمعاني القرآنية عامة ولغته التوحيدية بشكل أخص.

إنّ اليقين المعرفي الذي اتسم به فكر الإمام علي (عليه السلام) زاخر في موضوعاته المجموعة في نهج البلاغة، فهو القائل «لَوْ كُشِفَ اَلْغِطَاءُ مَا اِزْدَدْتُ يَقِيناً».

تبحث هذه الدراسة عن مظاهر التوحيد في نهج البلاغة، وخصصت نهج البلاغة بوصفه الأوثق في الجمع والأكثر رصانة من غيره من الكتب التي جمعت كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولذا بحثت مظاهر المعاني التوحيدية التي زخر بها الكلام العلوي في أربعة مظاهر هي: أولها: الرؤية الكونية الشاملة، وثانيها: استظهار المعرفة القرآنية، وثالثها: درست لغة الاستدلال المنطقي، ورابعها: بحثت في طبيعة المعالجة الأدبية للكلام التوحيدي العلوي، واستعنت بجملة من المصادر الخاصة بنهج البلاغة وشروحاته، والقرآن الكريم وتفسيره، فضلًا عمَّا يحيط بهما من مصادر التاريخ والبلاغة والنقد، محاولًا منها حسن الولوج إلى النص بغية اكتشاف خباياه، التي انتهيت منها إلى نتائج واضحة أثبتها بنقاط محددة، راجيًا الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما درست، فإنَّه نعم المولى والنصير.

Abstract

Imam Ali Abn Abi Talib was born to faithful family descended from Ismael (pbuh) adoption. He raised on monotheism by nature. Consequently deep quranic meanings aren't new to him. He realized it with the prophet either in selection at the Cave of Hira or behaviors and when she follows the prophet. Following his personality from childhood to youth we found that they were similar in thoughtfulness and Spirituality and seem to be identical language and movements therefor, he is distinguished and social and moral aspects more related to prophetic personality, which are undeniable he is that extraction of the lineage through Fatima (pbuh), his talk was part of prophet hadith and great virtues can't be limited in these few lines. For all of this, we I'm affirm that the idea of monotheism and it's a great meanings are ingrained in his soul do it his excellent memory on deep understanding of Quranic meanings generally and language of monotheism particularly have enhanced the expressiveness of it. Certainty of Imam Ali (pbuh) is it replied with themes collected in Nahjul- Balaga. This study deals with monotheism manifestation in Nahjul- Balaga has the most reliable on sobriety. So I searched the manifestation of monotheism meanings in a mom Ali sayings and for aspects:

Firstly the overall Cosmic Vision, secondly Quranic knowledge memorization, Sara Lee studied the language of logical reasoning, fourthly searched the nature of literary treatment of the monotheism speech of Imam Ali and I used resources that are related to Nahjul- Balaga and it's commentaries and the Holy Quran and it's interruption in addition to history, rhetorique and criticism trying to access to the text to discover recesses which lead me to clear results to specific points, hoping for acceptance from Allah whom the best lord and supporter.

المقدمة

فطرة التوحيد عند الإمام علي (عليه السلام)

انحدر علي بن أبي طالب (عليه السلام) من الأرحام المطهرة والأصلاب الشامخة، فهو من أسرة أصلًا تعتقد بالدين الحنيف من نسل إسماعيل (عليه السلام)، ولكن ما ميَّزه هو التربية الخاصة التي منَّ الله بها عليه بتبنِّي النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) له، فهو أصلًا نشأ على فطرة التوحيد، ومن هنا لم تكن المعاني القرآنية العميقة جديدة عليه، فقد فتح عينيه وهو يستلذها ويعيش أبعادها متأملًا وعابدًا مع النبي (صلى الله عليه وآله)، سواء في خلواته في غار حراء، أو في سلوكياته التي كان يتبع فيها ابن عمه اتباع الفصيل أثر أمه. ومن التتبع الدقيق لشخصيته من الطفولة حتى اليفاعة نجد ذوبانها في الحضرة النبوية في جميع المناحي من التشابه في العمق التفكيري والروحاني إلى شبه التطابق في اللغة والحركات، ولذلك تميز بظواهر اجتماعية وأدبية ألصق بالشخصية النبوية ولم ينكر أحد نسبتها إليه. كاختصاصه بالملازمة والامتداد النسبي من جهة فاطمة (عليها السلام) وتردد نسبة الكلام أحيانا بينه وبين النبي (صلى الله عليه وآله) إلى فضائل جمة لا يمكن حصرها في هذه الأسطر. لذلك كله ومن باب الأسباب الطبيعية نؤكد أن فكرة التوحيد ومعانيها العظيمة ذائبة في نفس علي (عليه السلام)، عزز قدرة التعبير عنها قوة حفظه وعمق تمثله للمعاني القرآنية عامة ولغته التوحيدية بشكل أخص.

وهذه الدراسة تبحث عن مظاهر التوحيد في نهج البلاغة، وخصصت نهج البلاغة بوصفه الأوثق في الجمع والأكثر رصانة من غيره من الكتب التي جمعت كلام أمير المؤمنين (عليه السلام)،

ولذا بحثت مظاهر المعاني التوحيدية التي زخر بها الكلام العلوي في أربعة مظاهر هي: أولها: الرؤية الكونية الشاملة، وثانيها: استظهار المعرفة القرآنية، وثالثها: درست لغة الاستدلال المنطقي، ورابعها: بحثت في طبيعة المعالجة الأدبية للكلام التوحيدي العلوي.

واستعنت بجملة من المصادر الخاصة بنهج البلاغة وشروحاته، والقرآن الكريم وتفسيره، فضلًا عمَّا يحيط بهما من مصادر التاريخ والبلاغة والنقد، محاولًا منها حسن الولوج إلى النص بغية اكتشاف خباياه، التي انتهيت منها إلى نتائج واضحة أثبتها بنقاط محددة، راجيًا الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما درست، فإنَّه نعم المولى والنصير.

مظاهر المعرفة التوحيدية

إنّ اليقين المعرفي الذي اتسم به فكر الإمام علي (عليه السلام) زاخر في موضوعاته المجموعة في نهج البلاغة فهو القائل: «**لَوْ كُشِفَ اَلْغِطَاءُ مَا اِزْدَدْتُ يَقِيناً**»[1]. ويمكن تجليته بأربعة مظاهر هي:

أولا: الرؤية الكونية الشاملة

إن المحتوى الذي حملته ألفاظ الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة يستند إلى مرتكزات رئيسة مرتبطة ببنية التكوين الفكري لذهنية الإمام (عليه السلام)، التي لا يمكن فصلها عن المضمون القرآني، وكان فيها «يصدر عن رؤية كونية شاملة، محاورها ثلاثة موضوعات لا انفصال بينها هي: الله والعالم والإنسان»[2]. فقد تدبر الإمام علي (عليه السلام) في الكون وتأمل فيه، وكأنه عالم واحد، لا عوالم متعددة، فتفاعل مع موجوداته وأحس بها، تابع منظر خلق أدق الدواب، في حركاتها وسكناتها، وتأمل

في إبداع هيأة الجوامد فاستنطقها بذهنه الوقاد، وتفرس في خلق ما لم تقع عليه الحاسة فأدركه ببصيرة العقل، فدلته تلك الدلائل على أن صانعها واحد ومنشئها عظيم ليس كمثله شيء. وكل شيء في نهج البلاغة يتعلق بالتوحيد، فكان حديثه عن الجنين، وملك الموت، وخلق النملة، والخفاش، والجرادة، والطاووس، وخلق الأرض والسموات، والجبال والأنهار، حديث العارفين بأوليات خلقها وإتقان صنعها، وهو بعد حديث وعي الدرس القرآني كما ذكر العقاد[٣]، وهذا التدبر الدقيق في خلق الموجودات هو الذي مكنه (عليه السلام) من عرض دلائله التوحيدية عرضًا شاملًا عميقًا محيطًا ولافتًا للانتباه، نحو تفصيل كلامه في دقائق خلق النملة «.. **وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ اَلْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ اَلنِّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى اَلطَّرِيقِ وَخَافُوا عَذَابَ اَلْحَرِيقِ؛ وَلَكِنِ اَلْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ، وَاَلْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ. أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ اَلسَّمْعَ وَاَلْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ اَلْعَظْمَ وَاَلْبَشَرَ، اُنْظُرُوا إِلَى اَلنَّمْلَةِ، فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ اَلْبَصَرِ، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ اَلْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَ ضَنَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ اَلْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وُرُودِهَا لِصَدَرِهَا، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِرِفْقِهَا. لاَ يُغْفِلُهَا اَلْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا اَلدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي اَلصَّفَا اَلْيَابِسِ وَاَلْحَجَرِ اَلْجَامِسِ، وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي اَلْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي اَلرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ**

مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً. فَتَعَالَى اَلَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ فِي خَلْقِهَا قَادِرٌ، وَ لَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ اَلدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ اَلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ اَلنَّخْلَةِ»[٤]، بقدر الذهول الذي يعتريني عند قراءة هذه التفاصيل عن كائن لا تستبين دقائق خلقه للإنسان الاعتيادي على الأقل اليوم، فكيف بذاك الزمن البعيد عن التوصيف العلمي للحيوان على هذا النحو الذي يعنى به اليوم اختصاص علم التشريح، أقول بقدر الذهول ذلك أقف منتبها على العدول المثير لعظمة التدبر عند الإمام علي (عليه السلام) في قوله الرابط بين مخلوقين بعيدين تمام البعد عن طبيعة خلقتهما «فَاطِرَ اَلنَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ اَلنَّخْلَةِ»، ففي العلم ذاك من المخلوقات الحيوانية وهذا من الموجودات النباتية، وبينهما ما بينهما من اختلاف واسع في الحركة والسكون والطبيعة، ولكن ذلك كله لم يمنع من الغوص في تدبر خلقهما وتقديمهما دلائل عظمة على أنَّ صانعهما واحد، لأنَّ المعرفة الدقيقة التي توصل إليها الإمام في اتقان المصنوع أيا كان شكله أتاحت له هذا الربط بين الخلق، إذ ليس ثمة خطأ في الصناعة أو سوء في التدبير كما هي الحال مع البشر، سبحانه تنزهت صفاته عما نقول وهو الذي أتقن كل شيء صنعه. إنَّ هذه النقلة بالسامعين من حديث النملة المفصل إلى حديث النخلة المقتضب بحد ذاته خطبة توحيدية جلية بالبرهان من جهة أدبية الجناس بين المفردتين، وما تثيره من ترديدات صوتية مقصودة لإثارة الذهن، ومن جهة الشكل المتناقض بين الضآلة والضخامة،

ومن جهة الصورة المعتادة للسامعين في هذين المنظرين. ومن هنا علل الإمام (عليه السلام) هذا الربط بقوله «لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اِخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا اَلْجَلِيلُ وَاَللَّطِيفُ وَاَلثَّقِيلُ وَاَلْخَفِيفُ وَاَلْقَوِيُّ وَاَلضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ»[٥] وأردف ذلك بمزيد من الشواهد فقال: «كَذَلِكَ اَلسَّمَاءُ وَ اَلْهَوَاءُ وَ اَلرِّيَاحُ وَاَلْمَاءُ»[٦].

وسنكتفي بإيراد شاهد واحد على أن نحيل القارئ إلى مزيد من ذلك كوقوفه على تفصيل خلق الطاووس والجرادة والخفاش. إذن ثمة رؤية شاملة للكون لدى الإمام (عليه السلام) استطاع بها أن يوالف بين أجزاء الموجودات ليقينه بأنَّ صانعها واحد، لذلك فهو يدأب على إيجاد علاقات خفية بين أجزاء هذا الكون، وإن بدت بعيدة فيما بينها كل البعد، وهو بهذه الرؤية الشاملة يستنتج من مجموع الحيثيات قاعدة عامة بأن من يجمع بينها خالق لا يمكن أن يكون له ضد، لأنَّ الجمع بين الأضداد مستحيل على غير الله تعالى.

ثانيًا: استظهار المعرفة القرآنية

عرف الإمام علي (عليه السلام) القرآن وعلومه منذ أن عرف الحياة بعقله وذهنه، لأنَّه لازم النبي (صلى الله عليه وآله) منذ أن كان طفلًا، فقد تشرَّبت روحه حب القرآن صياغة ومضمونًا، حتَّى جرى ذلك على لسانه متمثلًا ومعيدًا ما اختزن في ذاكرته، فهو «يتتلمذ للقرآن الكريم، ويستوحيه في عرفان إسلامه، وتقرير إيمانه»[٧]. ويبدو أن القدرة على استحضار المعرفة القرآنية كانت من أكثر ما تميز به كلامه (عليه السلام) من فرادة في المعرفة التوحيدية المبكرة والجديدة على الذهنية العربية، فأتاحت له التكلم بعمق غير مسبوق عن

الذات الإلهية بشكل مستفيض قرب به البعيد وأزاح منه الغامض على جلالة الحديث وجدته، مستثمرًا الطاقة اللغوية القرآنية في أبعد مدياتها في تقديم المعنى وتجليته للمتلقين، فللإمام خطب اختصت بهذا المعنى بشكل لافت، إذ توسَّع فيها على أصل المعنى القرآني مفصلًا غاية التفصيل، ومقيمًا الأدلة العملية والنظرية من أجل إثبات وحدانية الله تعالى. نحو قوله في إحدى خطب التوحيد: «مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَ تَوَهَّمَهُ، كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَ كُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ، لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ، ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ وَالْحُرُورَ بِالصَّرَدِ، مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا، لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا...»[٨].

ولا يمتلك أحد الجرأة- مستثنين رسول الله (صلى الله عليه وآله) طبعا- على ذكر الذات المقدسة وصفاتها بهذه الدقة غير علي بن أبي طالب (عليه السلام)، بل ليست لأحد هذه المعرفة بالله تعالى سواه، وكل ذلك للتنشئة الخاصة التي وهبها في حضن النبوة والقرآن، وهو القائل: «وَاللهِ مَا أَسْمَعُكُمُ الرَّسُولُ شَيْئاً، إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمَ

مُسْمِعُكُمُوهُ»[٩].

ولاشك في أن مرجع هذه المعاني هو الأصل القرآني في نفي الإلوهية عن غير الله تعالى، ولكن ليس ثمة محددات في القرآن الكريم يمكن بها إرجاع ما جاء من معاني الإمام في خطبته؛ سوى تأكيدنا على ما أعطي الإمام من علم وقدرة على التفصيل والاتساع، وإمكانية الإضافة إبانةً وشرحًا لما جاء في الأصل القرآني من الآيات المتكررة في إحاطة الله تعالى بكلِّ شيء، وقدرته على كل شيء وأنه لا يجري عليه الزمان أو المكان، نحو قوله تعالى: ﴿لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١١].

وقوله سبحانه: ﴿وَالله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[١٢]. وقوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[١٣].

إن معرفة الإمام (عليه السلام) بهذه الكليات المطلقة للخالق التي ترد كثيرًا في آيات القرآن العظيم (كل شيء) هي التي مكنته من التفصيل في حديثه عن الذات المقدسة، وإبانته عن قدرة الله تعالى في المواءمة بين المتضادات ما بين الموجودات التي هي داخلة طبعًا في قدرة الله تعالى الكلية. وهكذا بدا أنَّ الإمام عليًّا (عليه السلام) انطلق من القواعد العامة التي جاءت في القرآن الكريم وأخذ يفصل فيها الكلام ويقيم عليها البراهين.

ثالثًا: لغة الاستدلال المنطقي

لطالما استعمل الإمام الأدوات العقلية والمنطقية في إيصال ما يريد من معانٍ عميقة، ولاسيما قضية التوحيد ومعاني الغيب، وهو بذلك يستدرج ذهن المتلقي بتأنٍ من طريق

مقدمات يتمم بعضها بعضا في الوصول إلى البرهان تعزيزًا للفكرة التي يقدمها، إنَّه يبدأ بالمعلومة الثابتة المتفق عليها ثم ينتقل بعد ذلك إلى التفصيل في تعميق معانيها ليفجأ السامع بالبرهان المنطقي الواضح إلى الغاية من إيراد المثل برمته، ويعد ذلك أحد أساليب الإمام في كلامه التوحيدي، نحو قوله في حقيقة الموت «هَلْ تَحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً، بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا، أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا، كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ، مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟»[١٤].

هذه قاعدة منطقية واضحة، فإذا كان المصنوع غير مدرك كنهه فكيف يريد المرء كنه معرفة الصانع!.

وبهذا الأسلوب فقد وظَّف الإمام لهذا الاستدلال إمكانات لغوية مهدت لهذا الإقناع، فاستفهاماته على سبيل الإنكار عن الإحساس بالموت، والتساؤلات الأخيرة من قبيل تجاهل العارف بالنسبة إليه[١٥].

والإمام (عليه السلام) ترامى إلى الغرض الأخير من كلامه، وإنما جعل حديثه عن الملك والجنين توطئة مهد بها لمعناه الدقيق في وصف الذات المقدسة. ومن ذلك قوله: «فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَ الْمَاءِ وَالْحَجَرِ وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدِّرَ وَأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا وَهَلْ

يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ»[16].

فهذا تدرج منطقي في استثمار الظواهر لإثبات الصانع، موظِّفًا أغلب آلياته في التدرج من المقدمات ولغة الإنشاء الطلبي كالأمر والاستفهام القادرين على إثارة الذهن وإيقاظه. وأقام الإمام أكثر من دليل ينفي به إمكان رؤية الله تعالى أو إدراكه إدراكًا بصريًّا بمعنى «أنَّ الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه، لأنَّه متعالٍ أن يكون مبْصَرًا في ذاته، لأن الأبصار إنَّما تتعلق بما كان في جهة أصلًا أو تابعًا كالأجسام والهيئات»[17]. على أنَّ الإمام- من وجه آخر- لم يفته القول بأنَّ الله سبحانه يدرك بالسبيل الذي به استخلف مخلوقه المميز الإنسان وهو العقل. يذكر أن أحد أصحاب الإمام يقال له ذعلب اليماني قال له: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فقال (عليه السلام):

«أَ فأعبد ما لا أرى؟ فقال وكيف تراه؟ فقال: لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَ لَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَامِسٍ بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ...»[18]. فالإمام- كما القرآن- يبث في النفس حقائق أخرى للإدراك، تسمو عن مرامي الأبصار الحسية. ولطالما أكد (عليه السلام) هذه الفكرة، كقوله:

«الْحَمْدُ لله الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، ...، تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ، لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا، لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيماً،

وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيداً، بَلْ كَبُرَ شَأْناً وَعَظُمَ سُلْطَاناً»[١٩].

والشواهد معناها الحواس بدلالة قوله مفسرا لها (ولا تراه النواظر)، والمشاهد عنى بها المجالس والنوادي وفسرها بقوله (ولا تحجبه السواتر). وأكد إدراك الله تعالى بالعقل بقوله (تتلقاه الأذهان..) أي تلقيًا عقليًّا كما يقول ابن أبي الحديد، و«ليس كما يتلقَّى الجسم الجسم، بمشاعره وحواسِّه وجوارحه، وذلك لأنَّ تعقل الأشياء هو حصول صورها»[٢٠]. وممَّا تقدَّم نجد أنَّ لغة الاستدلال العقلي كانت إحدى مظاهر المعرفة التوحيدية في كلام الإمام (عليه السلام).

رابعًا: المعالجة الأدبية

ممَّا عرف به كلام الإمام في المجال المعرفي عامة والتوحيدي خاصة هو تمكنه من معالجة ذلك كله معالجة أدبيَّة ينقل بها الحقائق من الضيق المعجمي إلى شاعرية الأدباء؛ بغية مزيد من التوضيح والتأثير في السامعين، وربما كان ذلك أحد وسائل ابتكاراته (عليه السلام) في حفظ كلامه في أذن الدهر وقلوب محبيه ومبغضيه على السواء، فهو «أول من عالج فن الخطابة معالجة الأديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب»[٢١]. ومن المعلوم أنَّ المعنى إذا كان أكثر عمومًا وأغنى أمثلة وخصائص كان أيسر في التعبير عنه، وكانت الألفاظ اليه أسرع، وكلما ضاق المعنى وتحدد ودق وتعمق كان التعبير عنه أشق وكانت الألفاظ من حوله أقل، ولذا كانت موضوعات التوحيد والمعاد والثواب والعقاب مما يعسر على الأدباء تأديتها تأدية فنية لعدم قدرته على التوفيق بين المعنى

الجديد والأداء الفني. فأصحاب الفصاحة والبيان- بشكل عام- خاضوا بقوة في موضوعات الفخر والموعظة والمديح والحماسة والهجاء بينما في مجالات الفلسفة والتشريع ومختلف العلوم بدوا أقل احتفاء منهم بها، وقلما نجد الشعر يقتحم هذه الميادين. ومن هنا كانت لغة القرآن العظيم شيئًا آخر، فالنسق واحد ينتظم مختلف الموضوعات. في الموعظة بناء لغوي محكم، تشبه قوة نسجه في موضوع التشريع أو خلق الإنسان والكون، من غير ضعف في هذا النسج أو ذاك. في البناء اللغوي القرآني عناصر حياة تجعل منه لا يخلق على الآذان سماعه ولا يدب الملل إلى سامعه، لذلك لم نر أديبًا أجاد في المعاني الإسلامية الجديدة إجادة الأديب الجاهلي لمعانيه، لأنَّه لا يمكن التعبير فنيًا عن المعنى الإسلامي الجديد بلغة الجاهلية القديمة، فعليه التخلي عن الثقافة اللغوية الموروثة القديمة والانصهار في الثقافة القرآنية الجديدة، فقد وفرت الصياغات القرآنية زخمًا عاليًا من الثراء اللغوي وكان على الأديب في عصر النبوة التنبه إليه، واقتفاء أثرهن واستثماره بشكل كلي، وليس الوقوف عند حد اقتباس اللفظة أو الجملة من القرآن، وأعني بالشكل الكلي البناء اللغوي المتكامل للنص القرآني القائم على نظام من العلاقات التركيبية التي تعمقت فيها الدلالة بوسائط لغوية انمزج فيها الصوت بالصورة، من غير أن يسمى شعرا. بينما كان الأثر الحقيقي المبكر للقرآن في الكلام العربي جليًا في لسان علي (عليه السلام)، فما وصلنا من كلامه المجموع في (نهج البلاغة) يعد من أظهر تجليات الأثر القرآني

في الأدب العربي لسبب واضح هو أن المعاني الإسلامية ذائبة في نفسه وهي بعد جديدة على غيره. وتعد خطب التوحيد في هذا المجال أوضح دليل على ما نزعم فهي بحد ذاتها تصل إلى مراتب الإعجاز، نحو قوله «فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ، وَلَوْ لَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ وَلَا مَسْكَناً لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ»[٢٢]، فقد استعمل أساليب البلاغة من بيان وبديع بشكل فاعل في تأدية المعنى المراد من غير تكلف ولا تصنع، باتساق نغمي سجعي وجناسي وترادف وتقسيم بديعي بين الجمل، فضلا عن البناء التصويري الفريد المعروف في كلامه (عليه السلام). لاحظ التوازن بين المفردات في قوله «اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»[٢٣]، الذي أشاع نغمًا صوتيًا مقصودًا من غير إخلال بالمعنى أو قهر على ألفاظه.

ونحو قوله «الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِماً دَائِماً إِذْ لَا سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلَا حُجُبٌ ذَاتُ إِرْتَاجٍ»[٢٤]، وقوله: «وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ... فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ»[٢٥]. وفي تعبير آخر قال: «فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ»[٢٦]. ولم يكن السجع عصيًا في الأداء الفني بتعبيرات الإمام عن مختلف المعاني حتى تلك التي توصف بالجدة والدقيقة مثل ذكر الذات

المقدسة وقضايا التوحيد، فكان النبر بالقرائن السجعية عاليا. نحو قوله- فضلًا عما ذكر- من خطبة في التوحيد: «لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ، يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَ أَدَوَاتٍ يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَ يَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظ»(٢٧). ومثل قوله: «وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ دَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ وَقَائِمٌ لَا بِعَمَد»(٢٨).

وقال في موضع آخر «وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ»(٢٩). وذلك لأن من يلد في الأغلب يكون مولودا، وبذلك يفتقر إلى الكمال لأنه سيحتاج غيره فضلًا عن كونه سيحد بحدود المكان والزمان، وكل تلك الصفات تتناقض والإلوهية، وتتقاطع مع الوحدانية. ومن أدواته التصويرية قوله «وَلَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فِلِزِّ اللُّجَيْنِ وَالْعِقْيَانِ، وَنُثَارَةِ الدُّرِّ وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ..»(٣٠). فلفظة (تنفس) استعارة نقلت الجامد إلى الأحياء، واستعار الضحك للأصداف بوصف انفتاح الصدفتين وإسفارهما عن اللؤلؤ الشبيه في بدوه بأسنان الإنسان حال ضحكه «ومن صادف الصدفة عند فتحها وجدها كالإنسان يضحك»(٣١). وتدبر خلق السموات والأرض فقال: «وَكَانَ مِنِ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ، الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ»(٣٢). والرتق والفتق معنيان متقابلان: الأول، يعني الضم والالتحام، والآخر، يعني الفصل

بين المتصلين[٣٣]. ويبدو من معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾[٣٤] وتأكيد الإمام لها أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ثمَّ فصل الله تعالى بينهما[٣٥]، وقديمًا قالوا: أصل الأجسام الماء والمقصود بالماء هنا الجوهر السائل الذي هو أصل كلِّ الأجسام[٣٦]، وخلقت الأرض من زبده والسماء من بخاره[٣٧]. وتؤكد أحدث النظريات العلمية في نشأة الأرض والسماء هذا المعنى «وذلك أنَّهما كانتا في أول أمرهما ملتصقتين داخل السديم الذي يحتويهما، ثم أنَّهما انفصلتا نتيجة انفجارات شديدة حدثت داخل السديم»[٣٨]. وذكر (عليه السلام) الجبال في خطبته التوحيدية فقال: «وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا»[٣٩]. فجعل الجبال سببًا لسكون الأرض عن ميدانها واضطراب حركتها، في سابقة علمية رائدة، فقد ذكر ابن أبي الحديد «أنَّ هذا القول يخالف قول الحكماء [يعني الجغرافيين والفلكيين]، لأنَّ سكون الأرض عند الحكماء لم يكن لذلك؛ بل لأنَّها تطلب المركز، وهي حاصلة في حيِّزها الطبيعي، لكنَّا وإن كان مخالفًا لقول الحكماء فإنَّا نعتقده دينًا ومذهبًا ونعدل عن قول الحكماء، لأنَّ اتباع قوله (عليه السلام) أولى من اتباع أقوالهم»[٤٠]. وهذا المعنى استفاده من أكثر من موضع في الكتاب العزيز نحو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾(٤٢). والرواسي

جمع راسية من رسا إذا ثبت وقرَّ؛ لأنَّ الأرض ترسو بها[٤٣]، والراسي الداخل في الأرض[٤٤].

وهي تعبيرات تصويرية تنقل المعنى من التجريد إلى الحس والمشاهدة في أبهى حلة بيانية.

الخاتمة

نخلص ممَّا سبق من البحث إلى النتائج الآتية:

أولا: من فرائد الإمام علي (عليه السلام) التي تميز بها كلامه قدرة استحضاره للنص القرآني وتمثله شكلًا ومضمونًا.

ثانيا: عالج الإمام علي (عليه السلام) الحقائق التوحيدية معالجة أدبية جديدة.

ثالثا: أتاح عمق المعرفة التوحيدية للإمام (عليه السلام) تأديتها تأدية فنيَّة عالية.

رابعا: كانت لغة الاستدلال المنطقي إحدى آليات الإمام (عليه السلام) في عرض معانيه التوحيدية المعمَّقة.

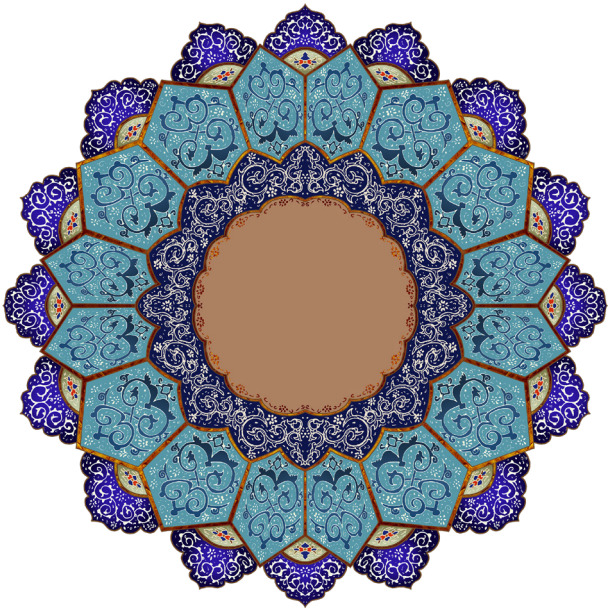

الهوامش

١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٧/ ٢٥٣.

٢. المعقول واللامعقول، زكي نجيب محمود: ٣٠.

٣. عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد: ٤٢.

٤. نهج البلاغة: ٢ / ١١٦ – ١١٧.

٥. المصدر نفسه: ٢ / ١١٦ – ١١٧.

٦. المصدر نفسه: ٢ / ١١٦ – ١١٧.

٧. عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد: ٤٢.

٨. نهج البلاغة: ٢/ ٦٩.

٩. المصدر نفسه: ١/ ١٨٠.

١٠. المائدة: ١٢٠.

١١. الأنعام: ١٠١.

١٢. الأنفال: ٤٧.

١٣. الشورى: ١١.

١٤. نهج البلاغة: ١/ ٢٦١.

١٥. ظ. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ٣/ ٩٠.

١٦. نهج البلاغة: ٢/ ٦٥.

١٧. الكشاف، الزمخشري: ٢/ ٤١.

١٨. نهج البلاغة: ١/ ٤٢٥.

١٩. المصدر نفسه: ٢/ ٦٤.

٢٠. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٣/ ٤٨.

٢١. عبقرية الإمام علي، العقاد: ١٨١.

٢٢. نهج البلاغة: ١/ ٤٢٩.

٢٣. المصدر نفسه: ١/ ٤٤٠.

٢٤. المصدر نفسه: ١/ ١٨٢.

٢٥. المصدر نفسه: ١/ ٣٨٥.

٢٦. المصدر نفسه : ١/ ٤٢٩.

٢٧. المصدر نفسه: ٢/ ٧١.

٢٨. المصدر نفسه: ٢/ ٦٤.

٢٩. المصدر نفسه: ٢/ ٧١.

٣٠. المصدر نفسه: ١/ ١٨٥.

٣١. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: ٢/ ٣٢٧.

٣٢. نهج البلاغة : ٢/ ١٤.

٣٣. ظ. المفردات، الراغب: ١٨٧ – ٣٧١.

٣٤. الأنبياء: ٣٠.

٣٥. ظ. التبيان، الطوسي: ٧/ ٢٤٠. الميزان، الطباطبائي: ١٤/ ٢٧٧.

٣٦. ظ. نهج الحياة، حامد حفني: ١٠٧.

٣٧. ظ. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١١/ ٥٣.

٣٨. القرآن وإعجازه العلمي، محمد إسماعيل إبراهيم: ٦١. ظ. الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم، سليمان عمرقوش:

١١٩- ١٢١.

٣٩. نهج البلاغة: ١/ ١٩٦.

٤٠. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٦/ ٤٤٧.

٤١. لقمان: ١٠.

٤٢. الأنبياء: ٣١.

٤٣. ظ. الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٤. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٩/ ٢٨٠.

٤٤. ظ. التفسير الكبير، الرازي: ٢٢/ ١٦٤.

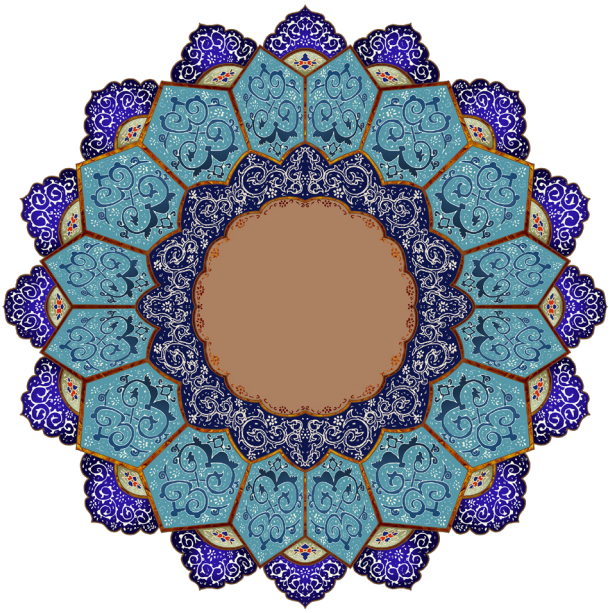

المصادر

القرآن الكريم.

• الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم، سليمان عمرقوش (الدكتور)، دار الحرمين- الدوحة، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

• التبيان في تفسير القرآن، الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب القصير، المطبعة العلمية- النجف الأشرف، (د ط)، ١٩٥٧ م.

• التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، طهران، ط٢، (د ت).

• الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٥٤هـ- ١٩٣٥م.

• شرح نهج البلاغة، المدائني ابن أبي الحديد (ت: ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، (د ط)، ١٩٥٩ م.

• شرح نهج البلاغة (المصباح شرح الكبير)، البحراني ابن ميثم (ت: ٦٧٩هـ). مطبعة خدمات، طهران، ط٢، ١٤٠٤ هـ.

• عبقرية الإمام علي، العقاد ،عباس محمود، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، (د ط)، (د ت).

• القرآن وإعجازه العلمي، محمد إبراهيم إسماعيل، دار الفكر العربي ودار الثقافة العربية للطباعة، (د ط)، (د ت).

• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (د ط)، ١٩٦٦م.

• المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢ هـ).تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت- لبنان، (د ط)، (د ت).

• المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، زكي نجيب محمود، دار الشروق، القاهرة- بيروت (د ط)، (د ت).

• الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان ١٩٧٢ م.

• نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت- لبنان، دار الجيل، ط٢، ١٤١٦ هـ.

• نهج الحياة، حامد حفني (الدكتور) وآخرون، طهران، ط١، (د ت).